أبو خليـــــل القبانى

باعث نهضتنا الفنية

للأستاذ حسنى كنعان

كان ذلك منذ خمس وتسعين حجة على وجه التقريب ، وفى أمسية من أمسى الربيع الضاحك الزاهى جلس « عهد أغا أفيق » والد النابغ الدمشقى أحمد أبو خليل القبانى فى حقوة داره الكبيرة ذات البحرة الدفاقة المعروفة فى حى الشاغور ، يستقبل وفود المهنئين من وجوه الحى وأعيان الشام بمناسبة احتفائه بختم ولده القرآن من فاتحته إلى خاتمته .

وكان فى صدر الدار من الوافدين مفتى الديار الشامية الشيخ محمود حمزة وعالمها الأوحد الشيخ بكرى العطار ، وكلهم مغتبط مسرور بحفاوة رب الدار بهم وإكرام وفادتهم . وكان من عادة السامرين فى هذه المجالس أن تكون الأحاديث فيما بينهم جميعها تدور حول امتداح المحتفى به على سبيل المجاملة ، وإدخال السرور على فؤاد والده ، وإيناسه وإثلاج صدره ، فشرع الكل يطرى ذكاء أحمد ويمتدح نشاطه وشدة ميله إلى الدراسة والتعلم . فقال مفتى الشام فيما قال :

إنى لأعجب يا حضرة الأغا العجب كله لشدة ذكاء ولدك هذا ؛ إنه إلى حداثة سنه وصغر مداركه أراه لا يترك حلقة من حلقات التدريس التى يعقدها علماء الشام فى المسجد الأموى إلا قصدها وكان من روادها . إنه لا يترك المسجد ساعة من نهار إلا فى أوقات الطعام ؛ فرواد الحلقات على كثرتهم وميلهم لطلب العلم لم أر بينهم من يفضله فى ذكائه واجتهاده ونشاطه . إنه لا يحل حبوته أمام شيوخ الحلقات ، فلا يكاد ينتهى شيخ من درس حتى يزحف إلى شيخ غيره ، وهكذا يظل سحابة يومه كالطائر الفرد يتنقل من فنن إلى فنن ، ومن دوحة إلى دوحة ، يجتنى من الأغصان والأدواح الباسقة أطيب الثمار وأشهى الفواكه ، حتى ينصرف شيوخ الحلقات وروادها ويقفر المسجد ، وتتعطل لغة التدريس فيه . ولما سكت الفتى عقب الشيخ المطار على حديثه قائلاً :

أضف إلى هذا أنك تراه فى الحلقات دائماً يكثر من تحريك أصابع يديه ورجليه ويكثر من التنغيم والترنيم همساً فى فمه ، وكثيراً ما يسترسل فى عمله استرسالا يجلب إليه النظر ، فيبادر من يجانبه من صحبه وهو ساهم غائب عن الدنيا والعالم يفكر فى شىء غير الدرس ، فينبهه ويفهمه أنه فى المسجد وفى الدرس ، لا فى الملهى والمسرح فينتبه فوراً ويصغى .

ولعل لهذا الفتى ميلاً خاصاً لأشياء أخرى غير ميله للدروس العلمية والفقهية ، وإن صدقتنى فراستى فولدك هذا لا بد أن يتردد على مجالس الموسيقى ويعاشر الموسيقيين . فهل يسمع أحداً من أرباب هذه الصناعة ، أم أن هناك ميولاً فطرية فى طبعه أثرت عليه ، فولدت فيه هذه الناحية ؟

وكان الأب مغتبطاً مسروراً بما يسمعه عن ولده من مدح وثناء ، وقد طال سكوته وإصغاؤه لمثل هذه الأحاديث السارة البهجة دون أن يتبس .

وبعد تفكير عميق قطع حبل صمته قائلاً : ولهذا أراك تكثر يا أحمد من ارتيادك مقهى العمارة الكبيرة ، فيحق عليك هلا أخبرتنى عما تفعله هناك . واستحيى الفتى واصطبغ لون وجهه بالحمرة وكاد العرق جبينه وغدا كأنه صنم من الأصنام لم يحر جواباً ولم يتحرك ...

وكان هناك فى الحجرة خل له يعطف عليه ويحبه حباً جماً ويعرف روحانه وجيأنه ، وهو واقف على أسراره الوقوف كله . فالتفت إلى أبيه قائلاً :

وأجبره على احترام الشعوب الشرقية واحترام حقها فى المساواة بالشعوب الغربية . وهذه السياسة الغاندية تجمع بين تقوية الهند وردع الغرب ، وتمهد فى نفس الوقت لإقامة وحدة عالمية بطرق عملية . فغاندى لا يختلف عن طاغور فى هذه الناحية وإن بدا لنا وطنياً . وذلك لأنه آمن بأن إحياء وطنه أمر أساسى لاتحاد العالم ، لأن الوحدة لن توجد لها قاعدة ما دام هناك دولة تستعبد دولة أخرى .

يجب أن تتحرر شعوب العالم جميعاً أولا ، ثم تعمل بعدئذ على توحيد العالم .

عبد العزيز محمد الزكى
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأميرية بكفر الزيات

أجل إنه يؤم حى العمارة كل ليلة ويسمر هناك فى المقهى الكبير مصغياً إلى أهازيج «السكركوزاتى» على حبيب، ويشهد محاوراته مع الصور الخيالية المؤلفة من رسوم عنترة وعبلة والمهلهل والزير والزناتى خليفة والملك الظاهر، وغيرهم من أبطال القصص التاريخية الخيالية الموضوعة لإلهاء الدهماء عن البحث فى أمور لا تعنيهم فى عهد الفاطميين.

وأزيدك يا عم علماً أنه يذهب فى كل أسبوع مرة أو مرتين إلى مكان خصصه ابن السفر جلانى وابن القبرة والأدلبى وغيرهم ممن لهم ميل خاص فى الموسيقى والأهازيج، ليتمرنوا هناك على الغناء والتمثيل.

ولقد فاجأته أكثر من مرة وهو منفرد فى حجرته يقلد السيد على حبيب فى مخاطبته عبلة بإشعار عنترة، ويمثل دلال عبلة على ابن عمها عنترة كما يفعل «السكوكرزاتى» على حبيب خلف الشاشة البيضاء التى أخفى الصور الخيالية خلفها ونثرها على ضوء المصباح الضئيل، وأصغيت إلى صوته الشجى عند ما كان ينشد قول الفارس العبسى المدنف فى حبيبة قلبه وفاتنة عقله يخاطبها بقوله:

هلا شهدت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
ينبئك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولما شعر بوقع أقدامى صمت بمقدار ما انضح له أنه واهم؛ ثم تابع إنشاده بنغمة غير سابقتها واستشرى صوته فى القاعة يدوى؛ وكان يشير بيديه كالمعتوه الذى خولط فى عقله صائحاً:

وسيف كان فى الهيجا طبيباً يداوى رأس من يشكو الصداعا
ولو أرسلت ريحى مع جبان لكان بهيبتى يلقى السباعا

أنا العبد الذى خبرت عنه الخ ...

فلم أستطع الصبر على تركه وحده فى القاعة هكذا يخاطب نفسه كالمجانين، وإنما فتحت عليه الباب الموصد ودخلت فجأة فأسقط فى يده وسكت. فصحت به ما هذا يا ابن أختى! ما الذى تفعله؟ تقلد «السكركوزاتى»!! أين «كراريسك» ودفاترك وأين كتبك وعناوينك الدراسية؟ أهذه هى الدروس التى تعلمتها فى المسجد على مشيخة الشام ونخبة علمائها؟ تلهو بالقشور وتترك اللباب إنك والله لمن الخاسرين الذين يضيعون مواهبهم وذكاءهم فى أمور مخزية. ماذا يقول الأغا والدك غداً إذا علم بنزعتك هذه؟ فما كان منه إلا أن جبهنى بقوله: أنا حر فى تصرفاتى، وليس لأحد على سلطان. فأنا إنما أبنى لأهلى وبنى قومى مجداً مؤثلا فى ارتيادى هذه الناحية. وستروون منى ما يدهشكم من الأعمال الباهرة التى سأقوم بها خدمة للفن أنا وصحبى.

وكان الفتى يصغى مطرقاً إلى حديث الخال المحترم، وعند ما سمع هذا الحديث عن تلميذه الذى كان مكبراً فيه ذكاءه النادر ومواهبه الفذة، تلمس فيه هذه الناحية التى تخالف مبدأه الدينى ونزعته الصوفية، لم يطاوع المقام له فى تلك الحفلة النادرة بعد الذى سمعه، نخف من المجلس على الأثر وهو يتمتم: أعوذ بالله! تمثيل ... موسيقى ... غناء، على حبيب! إن هذا المنكر لا نطيق سماعه، ولا نطيق السكوت عنه، أنت يا أحمد مطرود من الدرس منذ الليلة.

قال الشيخ قوله هذا وزحف على قدميه وقد كور جبته وراء ظهره وعقد يديه فوق الجبة واستلم باب الدار دون أن يودع الحاضرين إستنكاراً للأمر وتظاهراً بالورع والتقوى ...

فتبعه الشيخ المطار وقفى على أثرهما بقية من فى الدار من الوجوه والأعيان، وتفوض المجلس وخلا من سماره. وكانت هذه المحنة حافزاً للأب على الإيقاع بولده وغضبه عليه وهجرانه إياه.

بقى الفتى يقاسى فى نزعته الفنية ألم الحرمان والغضب وانقطاع الوشيجة بينه وبين والده وأفراد أسرته مدة حتى توفى الله الوالد وانعتق الفتى من أسر الرقابة وأصبح مالك نفسه وحاكم أمره، وكان قد بلغ سن الرشد فانقطع لخدمة الفن وتفتحت براعم عبقريته وأمسى يصل ليله بنهاره ونهاره بليله دأباً على التلحين ونظم القصائد والموشحات. وقد ساعده على الإجادة فى النظم ما كان قد أخذه عن شيوخه من قواعد اللغة والنحو والصرف حتى قال فيه أحد شيوخه لو ظل هذا الفتى متابراً على الدرس لتحدثت الشام عن علمه زمناً طويلاً، كما قال أحد الخلفاء العباسيين فى اسحق الموصلى: لولا نزعته الموسيقى لوليته القضاء.

(لها بقية) مصطفى كنعان